الشيخ عفا الله

قصة مصرية

(بقلم الاستاذ محمود تيمور)

حدثني صديق ، قال :

منذ عشرين عاماً كنت أسكن جهة درب سعادة . ذلك الحي القديم اذ الشارع الضيق والمباني المتزاحمة الأثرية . وكنت اذ ذاك في التاسعة عشرة من عمري أحضر لامتحان الشهادة الثانوية . وفي أوقات فراغي كنت أجلس أمام البوابة أتفرج على الرائح والغادي. وكان ثم أمام الدار - من وقت لآخر - شيخ بملابس بسيطة ضامر الوجه ، بلحية خفيفة فيها آثار الشيب ظاهرة . هادىء المشية. يسير في وقار . منكس الرأس على صفارته يناجيها بألحان شجية. فكنت أسترقه وأطلب منه أن يسمعني شيئاً من أنغامه . وكانت جميع ألحانه تحوي كثيرا من معاني اليأس والحزن . ولاحظت أنه قنوع يرضى بالقليل . وكان اذا استرسل في صفيره خيل لك أن الصفارة تتكلم وتبوح كأنها تحاول أن تفشي سراً ! وهو على طهارة قلبه ومظاهر الصلاح الناطقة على وجهه ، لا يؤدي اي فرض من فروض الصلاة ، ولا يذهب الى الجامع مطلقا ! ولا يتكلم عن شيء اسمه مغفرة ورحمة . واذا ذكر اسم الله أمامه طأطأ رأسه ذليلا ، وتمتم بألفاظ متقطعة غير مسموعة !.

وتوثقت بيني وبين الشيخ ألفة ساذجة . وحاولت أن استوضحه حقيقة آلامه فلم يرض ان يبوح لي بشيء . فاحترمت رغبته وصممت أن لا افاتحه في هذا الموضوع . وظل الرجل وقتا ما لغزا لا استطيع الوصول الى حله . ومرت الأيام والشيخ يزورنا مرة في الأسبوع فاحظى منه بألحان شجية ، وحديث هادىء جميل !. وكان يسترسل في الكلام بعض الأحيان فتفلت منه من غير وعي بعض جمل وكلمات بدأت تكشف لي شيئا من سره . وكان ينشد لي كثيراً من المواويل الريفية في الحب والتشبيب بالنساء. وكان اذا لفظ كلمة « الغيط » لفظها مفخمة منغمة واتسعت عيناه ولمعت بوميض غريب . واتسع صدره وتمددت طاقتا انفه وهو يستنشق في شغف الهواء الذي يحسبه هواء الريف . ثم يعقب ذلك تنهد حار عميق ، ومناجاة طويلة لصفارته وباغته ذات يوم بقولي:

- اقسم بالله لقد اكتشفت سرك ياشيخ « عفا الله » !

فارتعد مذعوراً . وتمتم كلاما :

- انك فلاح من الريف

فنظر الي بحيرة وقال بعد تردد :

- وهل استطيع ان انكر « اصلي » !

- وانك تألم من حب دفين .

فأمسك يدي وشد عليها ، وقال :

- اسكت ياسيدي ، اسكت :

- وانك ارتكبت معصية كبرى ، وتريد التكفير عنها

فامتقع وجهه ونظر الي محملقا ، وقال :

اعالم سري . . ؟ اعالم سري ؟ . .

واخذت استدرجه في القول حتى لان . وبدأ يروي لي قصته كالآتي :

لم اكن أدعى بالشيخ « عفا الله » فيما مضى ، بل كنت اعرف « بسرحان » وهو اسمي الحقيقي وكان لي اخ يدعى « محمد الرخ » كان اماما لمسجد القرية التي نشأت فيها . وكان قد تجاوز الأربعين ، بينما كنت في السابعة عشرة . وكنت اعتبره كأبي واخيه جاعلها وكان هو الآخر يحبني كابن له : وقد حفظني القرآن وعلمني اصول الدين واشركني معه في خدمة المسجد . وكنت قد بدأت اتعلم الصفير في ذلك العهد على شيخ طريقة مجذوب يجيد التمتع على الصفارة وانشاد القصائد الصوفية . ولما برعت في الصفير كان يلتف حولي على باب الجامع . بعد العشاء . جمع كبير من المصلين يستمعون الي .

وكانت زوجة اخي قد توفيت منذ عام ، فتزوج بفتاتي الخامسة عشرة لم تقع عيني على املح منها . لها جاذبية غريبة سحرتني وخبلت عقلي . رأيتها للمرة الأولى فلم املك ان احببتها حبا تملك على جميع مشاعري وكياني بالرغم مني بقيود ظالمة لم استطع التخلص منها . وخجلت من نفسي ومن اخي ، واعتبرت هذا الحب الشائن اكبر خيانة لذلك الشخص . الذي وهبني حنانه واخلاصه وثقته واردت ان احطم هذه العاطفة الذميمة ، ولكني لم استطع فكتمتها في قلبي ولم ابح بها الا لصفارتي ! فقد كانت عزائي الوحيد في نكبتي .

وكنت اتعمد ان لا اخلو بزوجة اخي واتحاشى ان اكلمها الا في الأمر الضروري . وكنت امكث بعيدا عن الدار في لجمة الليل ، اناجي حبي بألحان الشكاية والنوح . وحدث مرة ان كنت في موضع خلوتي غير بعيد عن الدار ، اصفر في شبه غيبوبة ، وانا ملتذ بآلامي اذ شعرت باحساس غريب فرفعت رأسي . والتفت حولي فوجدت « هنية » زوجة اخي جالسة غير بعيدة مني تنظر الي في صمت وخشوع . فذعرت وقمت من فوري وانا اقول :

ـ أنت هنا . . ؟

ـ منذ برهة وجيزة . . . انى أحب صغيرك وأشعر عند سماعه برغبة فى البكاء .

وتحركت أريد الهرب ، فامسكت بطرف جلبابى وقالت :

ـ لماذا لا تريد أن تجلس ؟

فصرخت بالرغم منى قائلا :

ـ دعينى !

فنظرت الى دهشة ولم تتكلم . ثم قالت :

ـ ما الذى يدعوك الى كرهى . لماذا تهرب منى . .

وبغتة أجهشت بالبكاء . فشعرت كأن قلبى يتمزق وأن دماغى يحترق . ثم هبطت عليها دفعة واحدة ، وأخذتها بين ذراعى . وأنا أقول : . .

ـ أنا أكرهك ياهنية ! . .

وانحنيت عليها أشبعها ضما وتقبيلا معبرا عن حبى الكبير بأحر العبارات . . وكانت الفتاة مستسلمة الى فى نشوة وغرام ! .

وبينما نحن على هذا الحال اذ طرق سمعنا أصوات من بعيد فصحونا من حلمنا اللذيذ . ورأينا على جسر الترعة أشباحا تسير متمهلة . فاضطربت هنية وهمست فى أذنى قائلة :

هذا أخوك عائداً مع المستأجرين .

ثم قامت دفعة واحدة وقالت :

ـ سوف أسبقه الى الدار ، متخذة طريق الغيط .

وقامت تعدو كالظبى المذعور . وأنا أراقبها فى لهفة حتى ابتلع الظلام شبحها الجميل ! وسرت أنا الى الدار متمهلا فى طريق الجسر . فوجدت أخى قد جلس أمام الطعام منتظراً حضورى . ولما رآنى صاح بى مداعبا :

أيصح أن تتركنا ننتظرك . تعال ياملعون وشاركنا الطعام ! . أريد أن أقص عليك كيف أجرت القدادين هذا العام بقيمة لم أكن أحلم بها .

وجاءت « هنية » ووضعت العيش أمامنا . وجلست مبتعدة قليلا عنا . وبدأنا نأكل . وكنت منهمكا فى تفكيرى ، لا أفهم شيئاً مما يرويه لى أخ ، مع تظاهرى بالاصغاء اليه . وكنت أرفع بصرى بين وقت وآخر نحو (هنية) فأجدها مسبلة الأجفان فى شبه ذهول تأكل بحركات ميكانيكيه ، ووجهها متقع . وحدث مرة أن رفعت نظرها الى . واشتبكت عيانا . وخيل لى أن وجهى يدنو من وجهها ، وان شفتينا على وشك التلاقى . وبغتة سمعت صرخة اهتزت لها الدار فارتعت ، وتنبهت لنفسى فرأيت (هنية) تشهق بالبكاء قائلة :

لا استطيع ! لا استطيع !

وهب أخى فزعا نحوها . وضمها الى صدره وهو يقول :

ـ مالك ياهنية ؟ . مالك ؟

ليس لى رغبة فى الأكل . دايخه . أريد ان أنام .

ـ قومى ياحبيبتى لتستريحى . .

وقامت متجهة نحو حجرتها وهى معتمدة على ذراع اخى . وكنت شاهد هذا المنظر وانا فى شبه خبل . اشعر بأنى قد تحجرت وصرت جزءاً من الأرض التى انا جالس عليها .

وعاد اخى بعد هنيهة ، وقال لى :

ـ المسكينة اجهدت نفسها اليوم فى أعمال الدار .

وكنت لا اطيق أن أنظر الى اخى فى هذه اللحظة وتصورته وحشا يريد افتراسى ! فقمت من فورى ووجهتى الباب . وسألنى أخى :

ـ الى اين ؟

ـ الى الجامع . اريد ان اصلى العشاء . ثم اقفله وأعود .

وخرجت اعدو الى مأوى المختار ـ الذى قابلت فيه (هنية) منذ وقت قريب ـ وارتميت على الأرض امرغ وجهى فى الموضع الذى كانت جالسة فيه . وانا انشج نشيجا حارا وامضيت ليلتى هناك ، وانا لا يهنأ لى مضجع . ابكى واغفو وأحلم ، ثم اصحو برجفة تزلزل جسمى ، وكان يترامى لى شبح أخى فى يقظتى ونومى . يحوم حولى يريد ان يقتلنى ، فكنت العنه بأشنع اللعنات . وفى الفجر غلبنى نعاس عميق ، لم أصح منه الا عند الظهر . وفتحت عينى واردت النهوض فخانتنى قواى ، اذ كنت اشعر بآلام شديدة وضعف هائل .

فجلست مستندا الى جذع شجرة خلق واخذت استعيد قواى شيئا فشيئا . وكان الغم يخيم على قلبى ، وشعور الندم الشديد يكتسح نفسى . فقمت مهرولا نحو الجامع ، واعتذرت لأخى عن تأخيرى بمختلف الاعذار ثم هبطت على يده اقبلها ، وانا اقول له :

ـ انى احبك يا أخى ! واقسم بالله انى احبك حبا لم يضمره ابن لابيه . اريد دائما ان انال رضاك وعفوك . قل لى اتحبنى ؟ .

فأجابنى : . !

ـ ما هذا الكلام ياسرحان . هل رأيت منى غير الحب الكبير ؟ . انت ابنى بل انت افضل من ابنى : .

ونظرت الى اخى فوجدت آيات الاخلاص مرتسمة على وجهه . فاندفعت اقبل يديه من جديد ؛ وانا ابكى بصوت عال . واتابتنى نوبة عصبية شديدة ، فارتميت على الأرض فى حالة تشبه الصرع . ولما افقت وجدت نفسى ممددا فى ركن من اركان الجامع ، واخى بجانبى مهموم الخاطر من اجلى ؛ يمرضنى ويحنو على .

ومضى اسبوع وانا لا اقصد الدار الا فى أوقات قليلة . وكثيرا ما كنت أتناول الطعام فى الجامع ، وانام ليلا فيه ، ولو استطعت لا مكثت بتاتا عن الذهاب الى المنزل . ولكنى كنت احتاط للامر حتى لا يشك اخي فى سلوكى . وكنت اجاهد ما أمكن فى سبيل ضبط عواطفى وأكلم « هنية » أمام اخى كلاما عاديا متحاشيا دائما النظر اليها . واذا تصادف وخلونا نحن الاثنان برهة صغيرة ظللنا صامتين منكسى الرأس واذا تقابلت الاعين اهتزت منا الاجسام كأن مسها الكهرباء .

ومضت الأيام والنار تأكلنى أكلا . أنام يوما سيئا . وأقضى يقظتى فى شبه أحلام مشوشة . واذ أديت صلاتى أخطأت الأدعية ، وكان قلبى مسرحا لمختلف الاحساسات المتباينة . الغضب والرحمة ، والكفران ، والتوبة والحب والبغض تتطاحن كلها باختلاط .

وتركت الدار — يوماً — بعد منتصف الليل بقليل وخرجت أعدو كالوحش المطعون وأنا أردد :

— انه معها فى الحجرة . انها له . وهو يتمتع بها . . .

وهمت على وجهى لا أدرى أى وجهة أقصد . واخيراً وجدت نفسى امام الجامع فدخلته بدون وعى وارتميت على الأرض اعض يدى واضرب رأسى فى الحائط ، وأنا مازلت أردد قولى :

انه معها فى الحجرة . انها له . وهو يتمتع بها . . .

وبينما كنت على هذه الحالة شعرت بيد وضعت على كتفى فالتفت مذعورا . فاذا « هى » امامى . . هى « هنية » فى تلك الساعة الموحشة من الليل وفى ذلك المكان المنعزل . فأخذتها بين ذراعى بلا كلام واحتضنتها بوحشية وانا أهذى

وأمضيت معها ساعة غرام عنيفة . من أشهى ساعات الوجود . وأقسم لك أنه ليس على وجه الأرض منذ خلقت الدنيا شخص نال مثل نعيم تلك الساعة . انها ساعة تساوى أعماراً بأكملها .

وبعد ذلك نمنا متعانقين . . . وتنبهت فاذا الباب يقرع . واذا ضوء الشمس يغمر المكان . وسمعت صوت أخى يقول :

— افتح ياسرحان

فوجدتنى أجيب بلا وعى :

— سأفتح فى الحال

وكان للجامع نافذتان مشبكتان بالحديد . وليس ثمة مخرج تستطيع أن تختفى فيه هنية أو منفذ تنفذ منه الى الخارج . فاختبل عقلى . ولكن خاطراً مر برأسى فقلت لها حاسماً :

— اصعدى الى السطح . . اصعدى سريعاً

فقامت هنية وصعدت فى الحال الى السطح ، وقمت أنا الى الباب ففتحته . وتظاهرت بالفتور الشديد ودخل أخى وعليه شئ من مظاهر الغضب . وقال :

— أما زلت نائما فى المسجد ياسرحان؟ اليس لنا دار تسعك معنا؟

— يخيل الآن أن أتعبد فى المسجد حتى مطلع الفجر ! . .

وجلس أخى صامتاً . وبعد برهة تكلم بلهجة قلقة .

— لقد استيقظت من النوم فلم أجد هنية بجانبى . وقد بحثت عنها طويلا فى الدار فلم اعثر عليها . .

فارتجفت . ولكنى تغلبت على ضعفى وقلت

— لعلها تكون قد خرجت لتملأ جرتها من الترعة

— ربما . . انما . . . .

ثم ابتلع ريقه وتمتم بكلمات لم أفهمها وقام وقال:

— هيا نصل الصبح!

وقمنا الى الصلاة . ولكن اى صلاة هذه التى اديتها فى ذلك الوقت . كانت صلاة للشيطان لا لله!

وانتهت الصلاة . وبدأ الناس يفدون على الجامع واصبحت فى حالة يرثى لها . واخيرا خرج اخى عائدا الى الدار . وما كاد يفعل حتى انسللت صاعدا الى سطح الجامع لأدبر حيلة لهرب هنية . وما كانت اشد دهشتى حينما رأيت السطح خالياً . ودرت فيه وانا كالمخبول ابحث هنا وهناك . وشعرت باحساس غريب يجذبنى نحو حافة السطح . وما كدت اشرف منه الى الأرض حتى صرخت مرتاعاً . ووجدت نفسى بعد لحظة على الأرض ولا ادرى كيف نزلت . وكانت هنية ملقاة بجوار الجدار تئن انينا خافتا فدنوت منها وانا فى جزع ولطفة وامسكت بها وسألتها عما اصابها ففتحت عينيها بصعوبة وقالت:

— لقد انكسرت ياسرحان . انكسرت!

وكانت تعض على شفتيها محاولة كتم تأوهاتها!

فاحتضنتها وأنا أواسيها وأشجعها . وسمعتها تقول :

— آلامى لا تطاق . . انى اموت !

وحملتها بكل عناية واحتراس . وأنا أكاد أجن من الحزن . وذهبت بها الى دار أم عبد الجليل . وكانت امرأة وفية ولى نعمة . وأخبرتها بشئ من الحقيقة ورجوتها أن تذهب الى أخى ليلفه خبراً ملفقاً . فقامت المرأة من فورها الى داره .

وحملوا هنية الى دارنا وقد أشاعت أم عبد الجليل انها سقطت من سطح منزلها بينما كانت تأتى بوقود لها !

ومضى يومان وهنية تعيش فى أتون متقد من آلام لا يتصورها العقل . أما انا فكنت أذهب الى زريبة المواشى وأحكم اقفالها

على . ثم انهـــال على وجهى باللطم . وانفجر فى نواح طويل وأنا أقول :

أنا سبب كل هذا ! أنا الذى يجب أن يعذب ! انا الذى يجب أن يموت !

وماتت هنية فى اليوم التالى ودفناها فى قرافة القرية باحتفال بسيط . اما حالتى يوم وفاتها فقد اعترانى خبل غريب ، فلم أصدق أنها ماتت . وكنت أؤدى عملى الذى كلفت به فى مأتمها ببســاطة وهدوء . بل كان يعترينى بعض الأحيان نوبات ضحك يعقبها خمول ووجوم . ولكن بعد أيام بدأت أشعر برد فعل شديد . فأخذت اهيم فى الفيطان : وأختى . فى الذرة ، وانا ابكى واندب بلا انقطاع . واخيرا هدأت حالتى نوعا فعدت الى عملى فى الجامع . ولكن مرآى ذلك الجامع كان يزيد شجونى وعذابى . فتمثل أمامى جريمتى كلما وطئت عتبته ويخيل لى انى اسمع صوت سقوط جسم من اعلى السطح الى الارض . فتعتريني قشعريرة واخبى يدى وجهى فى يدى واجهش بالبكاء .

لقد عملت المستحيل لكى اضلل اخى ولابعد شكه من ناحيتى وتحملت اكبر العذاب فى سبيل اخفاء جرمى . ولم اكن اجسر على النظر اليه . وكان يخيل الى انه يرفع يده فى وجهى يريد سحقى .

ومضت الأيام وسرى ينمو ويتضخم فى قلبى فأشعر بثقله الهائل . ويخيل الى فى كل وقت ان قلبى يتمزق وان السر يطير منه ويعلن الى الملأ فضيحتى . وكانت ايام عذاب لاأظن عذاب الجحيم يفوقها .

وفى ليلة عقب صلاة المغرب خرجت لأروح عن نفسى قليلا فقادتنى قدماى ، بدون شعور الى المكان الذى سقطت فيه هنية بجوار حائط الجامع . وبغتة قابلت اخى وجها لوجه ولا ادرى ما الذى ارسله الى فى هذه الساعة وفى هذا المكان . اهى المصادفة أم شىء آخر . لا ادرى ! ووقفنـــا امام بعضنا بالقرب من ذلك الجدار الرهيب . وشملنا الصمت برهة . وبغتة وجدت نفسى اصرخ واقول :

ـ لا تقربنى ! لاتقربنى ! .

واندفعت اجرى كالمجنون اهيم على وجهى . وكان هذا آخر عهدى بأخى وبتلك الديار ! . واخذت منذ ذلك الوقت اطوف المدن ، واعيش عيشة الطريد الشريد .

ثم اطرق الشيخ عفا الله صامتا . وشاهدت دمعة تتحدر فى بطء على خده . فقلت وانا شديد التأثر بما سمعت .

ـ لماذا لا تعود الى صلاحك ، وتطلب مغفرة الله .

فرفع عينيه وقال :

ـ لقد نأيت على الأقدار . وسأظل حتى نهاية ذلك المتمرد العاصى .

ثم سحب صفارته من عبه فى هدوء . واخذ يوقع عليها لحنا شجيا فيه معنى الصبابة والتضحية . وكان منتشيا ، بلحنه يتذوق آلامه الدفينة فى شبه غيبوبة سكرة .

فى الاكاديمية الفرنسية

انتظم فى سلك الاكاديمية الفرنسية أخيرا عضوان جديدان هما الكاتب القصصى بيربنوا ، والمؤرخ الاشهر جوسلان لينتر . والأول هو أصغر « الخالدين » سنا . فهو لا يتجاوز الاربعين من عمره ، مع انه لا يرقى فى الغالب الى هذا الشرف الرفيع سوى رجال قطعوا معظم مراحل العمر وأشرفوا على الستين أو السبعين . وينتمى بيربنوا الى أسرة من الضباط وقد كان أيام الحرب الكبرى ضابطا فى الجيش . فلما انتهت الحرب عاد الى الأدب . وسرعان ما ظهر فى ميدانه . وحاز ذروة الشهرة حينما اخرج روايته الشهيرة « الانلانتيد » . وهو يتربع اليوم فى كرسى المؤرخ الشهير لافيس .

***

واما المؤرخ لينتر ، فهو باحث محقق اشتهر بالاخص بتحقيقه فى تاريخ الثورة الفرنسية ، وله فى ذلك « باريس ايام الثورة » و« سقوط الجيروندين » وقد اشتهر بتاريخ مختصر كتبه عن نابليون يمتاز بطرافته وفكاهته وقد حل فى الأكاديمية مكان الروائى الشهير « رنيه بازان » ، وهو يربى على السبعين من عمره ، ولكنه ما زال وافر الانتاج يشتغل بالتحرير فى جريدة « الطان » ويكتب فيها باب « التاريخ الصغير » .

اعتـــذار

ضاق نطاق هذا العدد عن نشر كثير من الابحاث والابواب فنعتذر لحضرات الكاتبين ، وموعدنا بها العدد الثانى ان شاء الله

انتظروا عدد الرسالة الخاص بمشروع القرش